مسئولية خلقية

للأستاذ عبد الرزاق حميده

علم الأخلاق يعتبر الفرد مسئولا عن أخلاقه وأخلاق الجماعة التى يعيش فيها، ومسئوليته أمام ضميره الحى الذى يرشده الى الحق ويهديه سواء السبيل .

والدين يعتبر الفرد مسئولا عن تقويم أخلاقه وأخلاق الجماعة التى يعيش فيها أمام الله وأمام ضميره . فقد جاء فى القرآن الكريم "إن الذى كفروا من بنى اسرائيل لعنوا على لسان داود وعيسى بن مريم ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون ، كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه ؛ لبئس ما كانوا يفعلون" . " وعن النبى صلى الله عليه وسلم "من رأى منكم منكرا فليغيره بيده فإن لم يستطع فبلسانه . فان لم يستطع فبقلبه . وذلك أضعف الايمان"

وسبب هذه المسئولية أن الفرد يستطيع أن يرى من عيوب الناس ما لا يراه القانون ، ويرى من مخالفات الناس للقوانين ما لا تراه هذه القوانين. ولا يصل اليه علم القائمين عليها.

والمخالفات التى تجرى الآن لما شرعته الحكومة من قوانين وموقف بعض الناس منها خير برهان على أثر مساعدة الفرد للحكومة فى تنفيذ قوانينها ، وفى معاونتها على إصلاح أحوال الجماعة ، وضبط أمورها ونشر سلطانها وهيبتها واحترام أوامرها ونواهيها .

وقد سنت الحكومة عندنا تشريعا إثر تشريع وفرضت بعض العقوبات مثلا لمن يبيعون بثمن أعلى من التسعير الجبرى، ولمن يخزنون السلع ويحجبونها عن التداول حتى تشتد الحاجة بها ويطلبها الناس بأى ثمن مهما علا عن ثمنه الذى قررته الحكومة .

ويود أولو الأمر أن يضبطوا تموين البلاد ويعطوا الناس من المواد الضرورية لغذائهم وكسوتهم ما هم فى حاجة ملحة اليه ، ويضعون العقوبات والقوانين لمن يخالفون أوامرها فى هذا الشأن .

ولكن هذه القوانين والعقوبات لا تصل الى كل مخالف ، ولا تظفر بالاحترام التام إلا خوفا ورهبة، وكثيرا ما تكسر قيود هذه القوانين سرا أو جهرا . وينجو المخالفون لها من عقابها ، لأن الأدلة على جرائمهم غير قائمة ، أو لأن مخالفتهم لا شهيد عليها، أو لأن التحايل على الفرار من عقابها قوى .

وعندنا كثير من قضايا القتل يحفظ لعدم توافر الأدلة، وكثير من حوادث السرقات لا يعرف فيه السارق ، وإن كان يعرفه كثير من أهله وأصدقائه ، ولصوص الأعراض يمشون فى الأرض مرحا لا يناله جزاء لعدم توافر أركان الجريمة. وبعض التجار والمنتجين يفرون من أصناف التسعير الجبرى بتغيير علامات بضائعهم ومصنوعاتهم تغييرا غير جوهرى ليخرجوا من سلطة القانون وان لم تخرج بضائعهم عن نوع الأصناف التى قررت الحكومة تسعيرها .

والمستهلكون يحتالون على الحكومة لينالوا أكثر من حظهم، من ذلك ما تزيده بعض الأسرات فى عدد أفرادها بزيادة الخدم أو بإحياء الأموات أو غير ذلك، حتى تصل الى ضعف عددها وتنال من مواد التموين أضعاف ما تستحق ، فتستمتع به وتحرم منه من لهم حق فيه

والقائمون بالأمر فى بعض الدول لايخلو أمرهم من محاباة هذا أو ذاك لقرابة أو صداقة أو سماحة وجه أو علو منصب بأكثر مما قررته الحكومة لذوى المناصب وسماح الوجوه .

ولقد كانت هذه الحرب ابتلاء لأخلاق كثير من الأمم والأفراد فأظهرت من الطمع والجشع والرغبة فى أكل أموال الناس بالباطل ما ضجت منه البلاد ، وضاقت به القوانين والمحاكم .

ولو رجع الناس الى أنفسهم فى هذه الظروف ، وكان لهم من ضمائرهم وأخلاقهم وازع لأعطوا كل ذى حق حقه . واستراح كثير من الذين شقوا بمخالفات التموين وجشع التجار وعبث المتعمرفين فى الاقوات وغير الأقوات من ضروريات الحياة . ولو حرص الناس على أداء واجباتهم فنصحوا لكل مخالف للقوانين ، وأبلغوا الحكومة أمره اذا أبى الإصغاء لنصحهم ، وتعاون الناس جميعا على أن يقولوا الحق و يغضبوا للاعتداء على القوانين والحرمات لسعدوا وعاشوا آمنين . ولو عرف الفرد واجبه فى مساعدة الحكومة فامتنع عن الشراء بأعلى من أسعار الحكومة، وكف عن محاباة هذا على حساب ذاك ، ونفر من استغلال الناس فى وقت محنتهم وشدتهم كاستغلال مختزنى الأدوية ومواد التموين ، لسلم كثير من آذاهم المرض وأضناهم الجوع، وعضهم البرد، وهتك أستارهم العرى، ولرضى الفقير بعيشته، وأمن الغنى من سخطه واعنائه .

فحراسة الأخلاق، والجراءة فى الحق ، والصراحة عند الحاجة اليها، واجبات على كل فرد. والاعتماد على القانون وحده وعلى الحكومة وحدها فى القيام على رعاية الأخلاق ، وحفظ الحقوق ورعاية المصالح العامة والخاصة خطأ كبير . وليس من الأخلاق فى شىء أن نرى السارق والمزور والمرتشى والمجرم يرتكبون أوزارهم ولانفكر فى أمرهم ولانغضب من إجرامهم فان السكوت على الاجرام والرضا به إجرام، ولو علم الناس أن شر المجرم لا يقتصر على واحد وأن السكوت على جريمته يزيده طغيانا لحذروه عاقبة أفعاله ، وشهدوا عليه اذا قدم لمحاكمته، وابلغوا الحكومة أمره إذا حاول الفرار من القوانين والعقاب .

أذكر حديثا بين مصرى وسيدة أجنبية يبدو منه كيف يفهم الفرد والجماعة المسئولية الخلقية فى بلاد الانجليز : قال الشاب للسيدة فى أثناء حديث طويل بينهما : إن الماشية عندكم سائمة تبيت فى مراعيها ولا حارس يحرسها أفلا تخافون اللصوص عليها .

— أى اللصوص ؟ وكيف نخافهم ؟ وأين يذهبون بها ؟

— لصوص الماشية الذين يجدون الفرصة مواتية للسرقة عند وجود هذه الأبقار ليلا فى مراعيها فيسرقون منها مايشاءون ويبيعونه حيا أو مذبوحا، أو يخفونه حتى يدفع صاحبه حلوانه .

— من ذا الذى تحدثه نفسه بهذا ؟ وكيف يدفع صاحب المسروقات حلوانها ؟ وعلى يد من يكون هذا ؟ إن اللص الذى يسرق ثم يذهب الى صاحب المال يطلب منه حلوانا لص مجنون لأنه يعرض نفسه للقبض عليه .

— اللص لا يذهب بل يرسل بدلا منه " واسطة خير" يسعى بين السارق ومن سرقت أبقاره مثلا . ولا ينسى أتعابه . وتعود الماشية الى مالكها .

— ومن الذى تحدثه نفسه ويخطر ضميره الى حد التوسط فى مثل هـذا الأمر ؟ ولم لا يبلغ صاحب الماشية المسروقة ، ويشهد أمام القضاء ذلك الذى تسميه "واسطة خير" .

قد ينكر هذا "الواسطة" وتضيع المسروقات فلا ترد بحلوان ولا بغير حلوان .

— وأين تذهب الماشية المسروقة إذن ياسيدى ؟

— تختفى فى بلد غير البلد الذى سرقت منه ثم تباع بعد أيام أو تذبح ويباع لحمها .

— هذا لا يمكن أيها السيد الطيب القلب . فان صاحب المسروقات يبلغ البوليس وتنشر الجرائد المحلية والعامة أمر هذه السرقة ويصل البوليس سريعا الى السارق فينال جزاءه . والى المسروق فيعود الى صاحبه .

— وكيف يصل البوليس الى ذلك ؟

— ألا تعرف ان الناس يقرءون الجرائد ، وأن أهل كل قرية يعلمون بما فى قريتهم ، وأن الجار على الأقل يعرف ما عند جاره من ماشية ، فاذا زادت يوما ، ورأى الجار ذلك الخبر فى الجرائد وشك فى أمر جاره أخبر البوليس ليتحرى عن هذه الزيادة ؟

— وما شأن الجار ؟ وكيف ينسى حقوق الجوار ؟

— حق الأمن أولى من حق الجار . والناس عندنا أعوان الشرطة فى منع الجرائم قبل وقوعها ، والمساعدة على ضبط المجرمين والذى تحدثه نفسه بمثل السرقة التى جرتنا الى هذا الحديث مجنون ، لأنه سيعرض نفسه لفضيحة وعقاب لا مفر منهما ، ما دام للناس عيون ساهرة على الأخلاق حريصة على مساعدة الحكومة فى كل شىء . وما دامت طباعهم تأبى أن يعيش فيهم مثل هذا اللص وتأبى أن يسكتوا عن جرائمه . كيف تحدث بهذا يافلان ؟

— معذرة أيتها السيدة ، فهذا كثير فى غير بلادكم . ولعلك تعلمين بما يقوم به اللصوص فى أمريكا وتحدث إليكم به الجرائد ودور السينما ويسكت الناس فى كثير من الحالات خوفا من اللصوص أو خوفا عليه .

— أما نحن فلا عيش لمثل هذا اللص بيننا ، ولهذا نحرص على الأمن واستقراره ومساعدة القوانين ورجال الحكومة على تنفيذها لنعيش فى هدوء واطمئنان .

هذه خلاصة المحادثة بينهما ، وتلك درجة فهم الناس لواجبهم فى مساعدة أولى الأمر منهم على نشر الامن والأخذ على أيدى العابثين . ولعل لنا فيها موعظة وذكرى .

عبد الرزاق حميده
مدرس بدار العلوم